حاجي بابا أصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثاني والسبعون

عمارة في الطريق — حاجي بابا يجد
في حصيرة عثمان أغا عربة وحيرانا

خرجت من المنزل لا ألوي على شيء وأسرعت في مشيتي وظللت مدة لا أشعر بشيء ولا أسمع حتى ولا وقع قدمي إذ كنت مشوش الأفكار مهموماً محزوناً أحس باللوعة تكاد تمزق صدري وبالأسى يوشك أن يفتت كبدي . وحين وقع نظري على البحر جعلت أقول : « إن من الحكمة أن ألقي بنفسي فيه » غير أني أثناء اجتيازي ميداناً فسيحاً من ميادين المدينة رأيت حادثاً كان له رغم تفاهته أثر عظيم في نفسي إلى حد أنه غير مجرى أفكاري وأنقذني من الانتحار

وقفت أشاهد معركة من معارك الكلاب مما يكثر وقوعه في شوارع الآستانة فتسلل كلب إلى حظيرة جماعة من الكلاب واعتدى على حقوقها بأن سرق قطعة عظم وجرى بها . وتبع ذلك عواء شديد ونباح وانطلقت الكلاب جميعاً وكادوا يصلون إليه . وهنا تصادف أن قابل الكلب السارق بعض رفاقه فطلب منهم المعونة ورجع بهم إلى مهاجمة مطارديه وبذلك بدأت المعركة

وقد خطر لي خاطر أثناء وقوفي أشهد هذا المنظر فقلت : « يارب ما أعظم قدرتك وأحكم إرادتك وما أقل عقل من يندم على شيء أنت أردته وقدرته ! يارب لقد شاءت قدرتك أن أمر من هنا لأتعلم درساً ولأعلم الطريق الذي يجب اتباعه . إن المعونة والمساعدة في متناول الذي يطلبها . ذلك هو الدرس ، وإني لمتبعه إن شاء الله رغم أن الكلب هو الذي علمنيه . نعم يجب أن نعجب من حكمة تأتي بها الحيوانات ويفوت الآدمي إدراكها ، فلن أدع اليأس يتسلط عليّ وسأبحث عن صديق أجد العزاء والسلوان في تجاربه كما رأيت هذا الكلب يفعل الآن

واتجهت خطواتي إلى حيث كان صديقي الأمين ومرشدي وناصحي الشيخ عثمان أغا فهو على الرغم من كونه تركياً كان يعاملني كما لو كان مواطناً لي ومشاركاً لي في عقيدتي

استقبلني في سكون وهدأة كعادته ، وحين قصصت عليه بلواي صعد نفساً طويلاً من غليونه الذي لا يفارقه وتنهد قائلاً : « الله كريم ! » ثم قال لي : « اعلم يا صديقي أنك حين حضرت إلينا بكل ما عليك من مظاهر النعمة ودلائل الثراء والغنى ورآك مواطنوك كذلك تنبأت لك منذ تلك اللحظة بضربة تصيبك ومصيبة تحل بك ... إنك لا تزال صغيراً ولم تحمل على كتفيك من الأعوام الطويلة والتجاريب القاسية مثل الذي أحمل ، فأنت لا تدرك أثر النعمة الخادعة في نفوس الأشقياء المتاكيد ... أكنت تتصور أن قوماً من طبقتك في الحياة يرزحون تحت مايعانونه من العمل المتواصل والكد العنيف لا يعتمدون في رزقهم إلا على قصعة تبغ يبيعونها أو كيس تبغ شيرازي يتجرون فيه ، أكنت تحسبهم يطيقون أن يروا زميلاً عليه من مظاهر العز والغنى مالم يتصوروه

فى أحلامهم أو بتخيلوه طول أيامهم ؟ إنك لو كنت تفوقهم حذقاً أو تبزهم مقدرة وعزماً ثم ظهرت أمامهم بلباس أحسن من لباسهم وحال أنعم من حالهم، أو رأوك تمتطى الجياد وقد اعتادوا ركوب الحمير لهان الأمر ولما أوغرت صدورهم وأثرت حزازات نفوسهم، ولكن الذى أوقد نيران الحسد وأشعل لهيب الضغينة ظهورك بملابسك الأنيقة وغليونك الذهب وجوادك المطهم بين خدمك وحشمك وما كنت فيه من عظمة وكبرياء وعجب وخيلاء . وإن ذلك كله كان مفاجأة لم يسبقها امتياز لك عليهم ولا تدرج فى التفاوت بينك وبينهم فأذللتهم بذلك وحطمت عزائمهم فلم يحتملوا الأمر وحقدوا عليك ووطدوا العزم على إرجاعك - إن أمكنهم - إلى حالتك الأولى، فمن الجلى أنهم هم الذين أسروا إلى أصهارك أنك لست بالتاجر البغدادى ولكنك ابن حلاق فى أصفهان وأنك بائع سلع حقيرة

ولم يشك أصهارك فى صدقهم بسبب الريبة التى كانت تحوم حولك ولتلاعبك فى عقد الزواج وحيرتك فى تحديد ثروتك . ومن الواضح أيضاً أن أصهارك أدركوا كذبك فيما ادعيت من شرف الأصل وكرم المنبت وسعة الثروة، فمن متاجر فى بخارى إلى مراكب تسبح فى بحار الصين . ولو كنت ظهرت أولاً فى غير جلبة ولا ضوضاء بمظهرك الحقيقى لكنت نصحت لك وحذرتك من الظهور أمام أبناء بلدك بشىء يدل على النعمة أو ينم على الغنى . ولكن الأمر انتهى ووقع المقدور ولا حيلة لنا اليوم فيما حدث . وكل ما أوصيك به الآن أن تتعلم من ماضيك ما ينفعك فى مستقبلك »

وبعد أن انتهى الرجل من حديثه عاد إلى غليونه فقلت له : « قد يكون حقاً ما ظننت، وقد يكون الأمر قد انتهى ونفذ السهم وليس لنا غير السكون والصبر؛ غير أنى مسلم يا صديقى أعتقد فى عدل الله ولم أسمع قط أن امرأة طردت زوجها من بيتها وإن كان العكس كثير الشيوع . ولست أعلم ولا أستطيع أن أعلم بأى حق تقبلنى هذه السيدة زوجاً ثم لا تلبث أن تطردنى من منزلها فى هيئة تخجل الكلاب . إنها امرأة خبيثة سرها أن تعاشرنى فى الصباح ثم تهجرنى فى المساء

إن فى المدينة قضاة وشيوخ إسلام كما هى الحال فى كل بلد إسلامى فلماذا لا أرفع مظلمتى إليهم ؟ إنهم يقبضون مرتباتهم لإقامة العدل ورد المظالم فكيف يجلسون مطمئنين إذا سمحوا بمثل مظلمتى ولم يردوا العدل إلى نصابه ؟ إننى باحث بإذن الله عن حقى »

فقال صديقى عثمان أغا : « هل جننت يا حاجى بابا حتى تطالب مقاضاة أرملة أمير من أعظم أمراء الإسلام ، بينما يحميها أخواها وهما تاجران من أغنى تجار الآستانة ؟ أين عشت كل حياتك حتى لا تعلم أن الذهب والمال هما الحق والعدل ؟ إنك لو ظهرت أمام المحكمة تطالب بحقك ومعك ما شئت من حجج وبراهين ووقف أمامك صهرك بماله وجاهه، هل تشك فى أن الحق يكون فى جانبه ؟ »

فقلت متأوهاً : « إرحمنى يا أرحم الراحمين ! هل ضاع العدل وفقد الناس الذمم ؟ يئست عالما هذا شأنه ! إننى لا أستطيع أن أنزل عن حقوقى وسأطالب بها »

وجعلت من يأسى وحسرتى أبكى بكاء مراً وأنتحب نحيباً شديداً وجلست من يأسى وحسرتى أبكى وأنتحب ونزعت بعض شعرات من لحيتى فحاول عثمان أغا أن يهدئ من روعى ويسكن من هياجى

فأخذ يحدثني بحياتي الماضية وبحوادثنا وما شاهدناه أثناء سجننا لدى التركمان وقال لي : « إن الله قادر وحليم وكل ما يصيبنا في حياتنا فهو مكتوب مقدر فليس لنا إلا الرضوخ لما قدر علينا »

فخطر لي خاطر جديد وقلت : « ولكنني إيراني فكيف أقبل ظلماً من تركي ؟ إننا أمة عظيمة لها تاريخها وعظمتها من عهد جنكيز خان وتيمور خان ونادر خان الذين رفعوا شأننا وأذاعوا فضلنا بين العالمين ، والذين قتلوا رجال الترك ونهبوا ديارهم أينما وجدوهم . سأسعى إلى سفيرنا وأقص عليه الأمر . فإن كان رجلاً شهماً رد لي حقوقي من مغتصبيها . نعم . نعم . إن السفير سيرد زوجي إليّ . ما أحسن هذا الخاطر وأطيبه ! ثم سنرى من يستطيع أخذها مني ثانياً » .

وكنت قد تشبعت بهذا الخاطر ، وامتلأت به نفسي حتى لم أقف لأسمع ما يقول عثمان آغا في الموضوع وانطلقت ممتلئاً نشاطاً وإقداماً أسعى إلى ممثل ملكنا الأعظم الذي كان لحسن الحظ قد وصل قريباً في شأن من شئون الدولة مع الباب العالي .

الفصل الثالث والسبعون

عثوره على صديق - بعض أخبار ميرزا فيروز

علمت أن السفير يقطن في حي اسكوتاري . فيممت ذلك الحي ، وجعلت أرتب أفكاري وأنظم خواطري لأقدم للسفير مظلمة جديرة بالاهتمام . وبعد أن نزلت من القارب سألت عن منزل السفير . فلما وصلت إليه رأيت حديقة حافلة بالأتباع والخدم ، وقد ذكروني بموطني الذي يختلف كثيراً عن البلاد التركية بما بدا لي من ملامحهم وسرعة حركتهم .

ولما تكلمت معهم أدركوا أنني واحد منهم رغم ملابسي التركية ، ووعدوني أن يدخلوني إلى سيدهم من غير عناء .

غير أنني كنت أريد قبل أن أدخل إلى السفير أن أعلم شيئاً من طباعه وأحواله حتى أستطيع أن أظهر أمامه بالشكل الذي يريد ، وأحادثه باللغة التي يحب .

لذلك تحادثت مع أحد الأتباع من غير حذر أو مواربة عن كل ما أستفهم عنه ، وكانت نتيجة حديثي أنني علمت أن السفير اسمه فيروز ، وقد ولد في شيراز من أبوين محترمين ، ولو أنهما ليسا من علية القوم خلا أمه التي كانت شقيقة وزير قديم ذي سطوة وجاه ، والذي كان السبب في ارتقاء الشاه إلى العرش .

وتزوج السفير من ابنة خاله الوزير المذكور ، وساعده ذلك الزواج أن ينال مركزاً في الحكومة وكان قبل ذلك قد مارس عدة شؤون جعلته يزور كثيراً من الممالك ، ونتج عن ذلك أن اختاره الشاه وزيراً لشئونه الخارجية .

ثم قال : « إنه رجل ذكي القلب سريع الخاطر جبار العقل سريع الغضب غير أنه مع غضبه كثير التسامح ولو أنه حين يغضب لا يسلم المرء من شدته

وقد وهبه الله ملكة الخطابة والتأثير ، وبها استطاع أن ينجو في مركزه من أية ورطة يقوده إليها مركزه وحدة طبعه ، وهو يعامل خدمه وحاشيته بالحلم والرقة أحياناً وأحياناً بالشدة والقسوة فيسمح لهم في بعض الأحيان أن يقولوا ما يشاؤون في حضرته ، وفي البعض الآخر لا يجرؤ أحد أن يقترب منه ، ولكنه يغلب عليه التبسط في الحديث

والرقة واللين وحب المزاح .

ذلك هو الرجل الذى قادونى إليه . وقد رأيته جالساً فى أحد أركان الغرفة كعادة أهل إيران ، وبسبب جلوسه لم أعرف أطويل هو أم قصير ... غير أن وجهه كان من أجل الوجوه ، وهو عريض الكتفين ، عريض الصدر ، أقنى الأنف ، واسع العينين متألقهما ، جميل الفم جذاب ، له لحية يحسده الراؤون عليها . وكان مثالاً للجمال الفارسى ، وبعد أن تبادلنا السلام قال لى : « هل أنت إيرانى » ؟

فقلت : « نعم » .

قال : « إذن لِمَ تتزيا بالزى العثمانى ؟ إن لنا بحمد الله ملكاً ودولة لا يخجل من الانتماء إليهما أي إنسان » .

فأجبته : « لقد قلت حقاً . ولما لبست ثياب الأتراك وتشبهت بهم صرت أحقر من كلب ورأيت أيام بؤس لا توصف ، وتفتت كبدى أسى حيث اختلطت بهؤلاء القوم اللاعبين ، وليس لى من حام غير الله وغيرك » .

فقال لى : « وكيف ذلك ؟ تكلم ! هل نال أحد الأصفهانيين ، إذ يظهر من لهجتك أنك أصفهانى ، ضرر أو أذى من تركى ؟ عجيب هذا والله ! إننا ما حضرنا إلى هنا ، وما قطعنا كل هذه المسافات الشاسعة إلا لنذيقهم العذاب لا لكى يعذبونا » .

فقصصت عليه كل أمرى منذ البدء إلى النهاية وكنت كلما تقدمت فى الرواية ازداد هو إقبالاً علىّ وانشراحاً بحديثى إلى أن وصلت إلى قصة زواجى فأخذ يضحك ضحكاً عالياً متواصلاً من الرواية التى رويتها عن زوجتى ، وقد سره ما أخبرته به من أمر الوليمة التى أقمتها والاحترام الذى قوبلت به وأبهتى وعظمتى اللتين ظهرت بهما ، وكنت كلما ذكرت شيئاً من خديعتى لعجول الأتراك (كما كان يسميهم السفير) وغشى لهم زاد سروره وانشراحه وكثر ضحكه وأخذ يقاطعنى بقوله : « بارك الله فيك يا أصفهانى ! بارك الله فى ذكائك أيها المفلس ! والله لو كنت فى مكانك ما صنعت خيراً مما تصنع »

ولكننى حين قصصت عليه ما فعله مواطنىّ من حسدهم وضغينتهم وما تم أخيراً فى منزلى ، والشتائم التى انهالت علىّ من النسوة وأقارب زوجتى . وحين مثلت له حالتى حين خرجت من المنزل رأيته بدل أن يظهر الشفقة والأسى لما نالنى أخذ يضحك ويتمايل من شدة الضحك وقد احمرّ وجهه وانتفخت عروق جبهته ولم يلبث أن استلقى على وسادته من تأثير الضحك الشديد

فقلت له : « أتوسل إليك ياسيدى أن تفكر فى مركزى الحاضر . لقد كنت أنام على فراش من وردفأصبحت لا أجد ما أتوسده . وكنت أمتطى خير الجياد فأصبحت أتمنى أن يكون لى حمار حقير

إننى حين أتصور ما كان لى من ثروة وغنى ، من ثياب فاخرة وخدم وحشم وحمامات من رخام وغلايين وفناجين وكل ما يمكن أن يشتهى المرء ، ثم أرى نفسى اليوم لا أملك ما أتبلغ به ؛ حين أتصور ذلك أعانى حسرة أية حسرة ! وأكابد لوعة أية لوعة !

إن هذه الذكريات لتثير كل شعور فى نفسى إلا السرور ، وتحدث كل شىء بنفسى إلا الضحك مهما يكن تأثيرها فى نفسك »

فصاح السفير ضاحكاً : « إن هؤلاء الأتراك مضحكون وإننى أتخيلهم الآن بلحاهم الطويلة ورؤوسهم الصلعاء ، وقد انطلت عليهم رواية الإيرانى الخبيث وأكاذيبه . ولولا أن أبلغهم الأمر فارسيون من

جلسه اطلاعا فى عمايتهم ولما خامرهم شك ولا ريبة .

ثم قال لى : ماذا أستطيع أن أعمل ؟ لست والدك ولا عمك لأتدخل فى أمر زواجك ، وأقنع أهل زوجتك ، ولست قاضياً ولا مفتياً لأفصل فى موضوعك » .

فأجبته : « نعم . لست واحداً ممن ذكرت غير أنك حامٍ هنا ونصيرى ، وأنت تمثل ظل الله على الأرض فلا تتخلَّ عنى ولا تسمح باضطهاد يصيب مسكيناً غريباً مثلى »

فقال لى : « هل ترغب فى استرجاع زوجتك على أن تظل عرضة للقتل فى كل لحظة ؟ ماذا يفيدك الغنى والثروة والجاه والسطوة إذا وجدوك قتيلاً فى صبيحة اليوم الذى تستردها فيه ؟ كلا ! كلا ! كن عاقلاً وأصغ إلى قولى واستمع لنصحى . ألق كل ما عليك من ملابس الأتراك وارجع كما كنت فارسياً . فإذا ما استعدت شكلك الأول فكرت فى أمرك ، وفيما يجب أن أعمل من أجلك . لقد أطربتنى قصتك وأعجبنى ذكاؤك وفطنتك وصدقنى أن فى الحياة ما يفوق النوم على فراش من ورد ، والتدخين طول اليوم فى قصبة تبغ أو ركوب جواد ضخم فاليك هنا وإذا اشتقت يوماً إلى اللهو والضحك أحضرتك لتقص علىَّ قصتك ثانياً » .

وعند ذلك قمت فقبلت أطراف ثيابه شاكراً فضله . وتراجعت غير عالم بما يكون من أمرى فى حالتى هذه .

الفصل الرابع والسبعون

مجىء بابا بحوز ثقة السفير

لقد قيل إن الحاجة لجواد يمدو براكبه فيصل إلى ما لا يصل إليه الجواد السابق . وكنت قلقاً كثير الهم والتفكير ، فآمالى من حيث الحياة الناعمة والعيش الطيب قد ذهبت أدراج الرياح ورأيت نفسى مضطراً إلى الكد والنصب لأحصل على ما يقوم بأمورى

وأخيراً قلت لنفسى : « لئن فقدت المنزل فقد عثرت على صديق وليس من العقل أن أرفض حمايته ولا شك أن العناية التى حفظتنى والقدر الذى سدد خطواتى سيتعهدانى فى مستقبل وقد أصل يوماً من الأيام إذا شاءت المقادير إلى حالة لا أقلق معها على الحياة »

وصممت على التقرب من السفير ، وسرنى أن رأيت أن البشاشة التى أظهرها عند أول مقابلة قد زادت ، وكثر عطفه علىَّ مع توالى الأيام . وقد استفاد السفير منى إذ جعلنى أستطلع له الأخبار ، وأؤدى له خدمات حكومية ، وأخرى خاصة بمهمته التى جاء من أجلها .

وشغلنى عن البحث فى مستقبلى الاهتمام بالحوادث العامة ، والأمور الخارجية ، وكنت لا أعرف عن الأمم من قبل غير أمتى وأمة الترك ، وأسماء بعض الأمم الأخرى مثل الصين والهند والأفغان والتتار والكرد . وكنت أعرف العرب كذلك ، وأعرف من الأفريقيين بعض أجناس كنت أراهم يخدمون فى منازلنا .

وعرفت من الفرنج الروسيين (إذا كان هذا هو اسمهم) وقد كنا كثيراً ما نرى بعض رجالهم فى إيران . وسمعت عن الإنكليز والفرنسيين .

فلما دخلت إلى الآستانة دهشت إذ سمعت بوجود أجناس أخرى من الفرنج غير الثلاثة الأجناس التى ذكرتها ، ولكننى كنت مشغولاً بأمورى الخاصة

فلم ألتفت كثيراً إلى ما يختص بهذه الأجناس .

فلما انضممت إلى أتباع السفير ، وصرت فى معيته سمعت عن أشياء لم تكن تخطر ببالى من قبل وسر السفير إذ علم أننى أسعى إلى مرضاته ، وانتهى أمره بأن منحنى ثقته التامة .

فى صباح أحد الأيام بعد أن تسلم رسائله الرسمية ، أرسل فى طلبى وقال : إنه يريد محادثتى على انفراد فى أمر هام . وأمر كل من كان موجوداً بالانصراف وأجلسنى . ثم قال لى بصوت منخفض : « يا حاجى بابا . إننى أريد أن أحادثك . فإن القوم الذين تتكون منهم معيتى لا يفقهون ما أريد . وهم فارسيون أذكياء إلا أنهم لا يدركون من شئون الدولة شيئاً ، ويعطلون الأعمال التى حضرت من أجلها أكثر مما يساعدوننى على إنجازها . غير أننى والحمد لله قد وجدت فيك الرجل الذى أطلب . فأنت فوق هؤلاء الرجال خبرة ودراية ، وقد رأيت من العالم وحوادثه وتجاربه فوق ما رأوا ، ويمكن الاستفادة بك . إنك تستطيع أن تضحك من الذقون ، وتستخرج لباب الأمور من غير أن تلمس ظواهرها . وأنا فى احتياج إلى رجل مثلك . فإن أخلصت لى وللشاه ملك الملوك كان ذلك سبباً فى رفعتنا سوياً ، وفى ارتقائنا وعظمتنا » .

فقلت له : « إننى وما أملك من قوة ونشاط رهن إشارتك . فما أنا غير عبدك وخادمك ، وليس على سيدى السفير إلا أن يأمر فيطاع أمره على الرأس والعين » .

فقال السفير : « قد يكون وصل إلى سمعك مما تتداوله الألسن أن مهمتى التى قد جئت من أجلها هى شراء الرقيق للشاه من نسوة بارعات فى الرقص والعزف على آلات الطرب وغير ذلك من الشئون المنزلية ، وأن اشترى للحرم الملكى حرائر ورياشاً وبدائع وطرائف ... لقد أشعنا ذلك لتضليل الجمهور وإخفاء غرضنا الحقيقى ، فلم يرسلنى الشاه لأمثال هذه السخافات بل حضرت فى غرض أهم وأشرف مما ذكرت . حضرت فى مهمة فوق ما تتصور ، ولا ينتخب الشاه لمثلها إلا الذكى الحصيف ، وقد وقع اختياره علىّ فأرهف سمعك لما أقول . منذ بضعة أشهر وصل إلى طهران عاصمة إيران سفير من أوربا قال : إن الذى أوفده هو امبراطور اسمه نابليون بونابرت شاه الفرنسيين . وقال إنه يحمل رسالة وهدايا للشاه وتحدث ذلك السفير كثيراً عن قوة الامبراطور وأعماله وصفاته ، وأكد رغبة سيده فى عقد محالفة مع الشاه . وقال السفير : إن لديه من التعليمات ما يخوله عقد المحالفة ، وظهر فى كلامه وحركاته بمظهر عظيم حقاً ، وصرح بأن باقى الأمم الأوربية أى أمم الفرنج ليست إلا مواطئ لقدمه لا تستحق منه أى اعتبار ووعدنا السفير بأن يتخلى لنا الروس عما فتحوه فى جرجان ، وأن يعيد إلى الشاه تفليس وغيرها من المدن التى كانت للفرس فى الزمن الماضى وقال إنه سيفتح الهند ويطرد منها الانكليز ، وأنه يهيئ لنا كل ما نطلبه وتصبو إليه نفوسنا .

وقد كنا سمعنا عن الفرنسيين أنهم يجيدون غزل الأقمشة وبصنع صناعات أخرى غير أننا لم نكن نعلم أن فى استطاعتهم تنفيذ ما كان يدعيه ذلك السفير . وسمعنا فوق ذلك شيئاً من أخبار هجومهم على مصر إذ ارتفعت على أثر ذلك الهجوم أثمان الين والحناء . وذكر أحد العظماء سفيراً فرنسياً من قبل ملك فرنسا لويس ولكن أحداً منا لم يعلم أن ذلك البونابرت

قد صار ملكاً على فرنسا . وعلمنا من تجار الأرمن الذين طافوا بلاد العالم بوجود رجل بهذا الاسم وبأنه كثير الجيش ومسبب شغب وقلق . وقد قبل الشاه بسبب ما علمه من هؤلاء التجار وبسبب ظروف أخرى أن يسمح للسفير بالمثول بين يديه . غير أن أحداً من الناس لم يستطع أن يعرف إن كانت الرسائل التى أحضرها ذلك السفير مكتوبة بخط يمكن تفسيره أو لا يمكن وأن ما قاله السفير كان حقاً أو باطلاً ، فأعيا الأمر وزراءنا كبيرهم وصغيرهم ولم يستطع الشاه أن يدرك شيئاً رغم علمه الواسع بكل ما تقع عليه أشعة الشمس وإذا استثنينا « الخواجه عبيد » الأرمنى الذى كان قد وصل إلى مرسيليا وهى بلدة فى فرنسا وظل فيها سجيناً أربعين يوماً ، وإذا استثنينا كذلك « ناسيس » القس الفرنجى الذى تلقى العلم مع الدراويش فى جهة من جهات تلك الممالك المجهولة . إذا استثنينا هذين الرجلين لم نجد بباب الشاه من يستطيع إرشادنا أو يلقى على ظلمات عقولنا شيئاً من النور أو يستطيع على الأقل أن يخبرنا إذا كان هذا البوناپرت وسفيره محتالين أو صادقين ؟ وهل جاءنا السفير ليهب بلادنا أو ليرفع من شأننا ؟ ثم لم تطل حيرتنا فإن الإنكليز الذين كانوا يتجرون بين الهند وإيران ويقطن بعضهم فى « بوشير » حين علموا بمجىء ذلك السفير أرسلوا إلينا الرسل والرسائل وبعثوا بعامل منهم يحثنا على عدم السماح لذلك السفير بالتقرب منا وحاولوا كثيراً أن يعلموا تقدمه ونجاحه حتى أدركنا أننا نستطيع الاستفادة كثيراً من هذا النزاع بين الإنكليز والفرنسيين

وقد قال الشاه : « وعزتى وتاجى إن العناية الإلهية هى التى أحدثت ما حدث . إننى أجلس على عرشى ويقبل علىّ أهل الشمال والجنوب وسكان الغرب والشرق ويقدمون إلىّ الهدايا والنفائس ، لأسمح لهم بالمقابلة تحت قدمى فليتقدم منهم من يتقدم وليفد علىّ منهم من يفد فالله معنا »

وعند ما تركت باب الشاه كانت فارس تنتظر قدوم سفير انكليزى . والخطابات التى تسلمتها الآن تنبئ بأخبار طلبه السماح له بالمقابلة والمخابرات الدائرة بهذا الشأن غير أن الشاه لا يستطيع البت فى الأمر قبل أن تصله أخبارى لأنه حين علم أن فى الآستانة كل الأجناس الأوربية وأن لكل أمة سفيراً فيها رأى جلالته بما له من الحكمة وسداد الرأى أن يبعثنى إلى هنا لأحصل له على المعلومات التى نحن فى حاجة إليها حتى يزول من فارس كل ريب يتعلق بالفرنسيين والإنكليز وحتى أعلم إذا تمكنت حقيقة ما قالوه عن أنفسهم .

وقد رأيت يا حاجى بابا أننى رجل واحد هنا والعمل الذى كلفت به يحتاج إلى أكثر من خمسين رجلاً فالفرنج أمم مختلفة وأجناس لا عداد لها كما لاحظت هنا من تباين اللغات واختلاف السحن واللهجات ، وقد أخبرتك أن رجال حاشيتى لا خير فيهم ولا منفعة منهم فى مثل أبحاثى فوقع اختيارى عليك . وها نحن أنتظر نتاج مجهودك وثمرة أبحاثك ويجب أن تتعرف على بعض هؤلاء الكفار . ولمعرفتك باللغة التركية تستطيع أن تستعلم منهم عن كثير ممن نود . وسأنقل لك نسخة من تعليمات الشاه فى هذا الصدد ويجب أن تخفى هذه التعليمات فى أبعد مكان من عقلك غير أنك تسير على مقتضاها فاذهب الآن إلى أن أستحضر لك هذه الأوامر واجلس فى مكان منفرد وفكر طويلاً فيما يجب أن تتبعه من الطرق وتتخذه من الوسائل »

وبعد ذلك أمرني بالانصراف فتركته وخرجت وقد فتح أمامي طريق جديد من طرق الحياة

الفصل الخامس والسبعون

مهمة عامي بابا في الحياة العامة وتفقد المخدرات

خرجت بعد أن أعطاني السفير صورة من تعليمات الشاه ويممت مقبرة مجاورة لأتلوها على انفراد بهدأة وسكون وقد أبقيت الورقة ملفوفة في طيات عمامتي، ولأن هذا العمل كان أول عمل لي في الحياة العامة فقد ظلت محتوياتها منقوشة في ذهني ثابتة في مخيلتي

وكان أول أبحاث السفير متجهاً إلى معرفة حقيقة تلك المملكة التي تسمى الفرنجستان وهل ملكها الذي يلقبونه في فارس بشاه الفرنج موجود حقاً وأين عاصمته إن كانت له عاصمة ؟

وكان السفير فوق ذلك يريد أن يستعلم عن عدد قبائل الفرنجستان وهل هم ينقسمون إلى سكان مدن وسكان صحراء كما هي الحال في إيران ومن هم رؤساء قبائلهم وكيف يحكمونهم ثم يستعلم بعد ذلك عن فرنسا وعن اتساع أبحاثها وهل هي قبيلة من قبائل الفرنج أو مملكة مستقلة ومن هو ذلك البوناپارت الذي يلقب نفسه امبراطور تلك المملكة ؟ وأمر السفير أن يوجه كثيراً من التفاته إلى معرفة حقيقة هؤلاء الإنكليز الذين يعرفونهم في فارس بأقمشتهم العريضة وساعاتهم وخناجرهم ، ويعرف من أي طبقة من طبقات الكفر هم ؟ وهل يقيمون طول العام في جزيرة من غير أن يكون لهم مصيف ولا مشتى وهل يعيش معظمهم في المراكب ويقتصرون في قوتهم على الأسماك ؟ وإن كان هذا هو أمرهم فكيف استطاعوا الاستيلاء على الهند ، ثم يبذل جهده في كشف مسألة حيرت ألباب الفارسيين وشوشت عقولهم وهي كيف أن انكلترا ولوندرا قد اختلطتا واشتبكتا فهل انكلترا جزء من لوندرا أم لوندرا جزء من انكلترا ؟

ثم أمر السفير أن يستعلم فوق ذلك عن حقيقة الإمبراطورية ومن أو ماهي وكيف وجدت العلاقة بينهما وبين انكلترا وهل الإمبراطورية امرأة عجوز كما يتردد على بعض الألسنة أم تتكون من جملة عجائز ؟ وهل ماروي عن عدم قابليتها للفناء مثل (لاما التبت) خرافة أم حقيقة ؟ ثم يستكشف حقيقة بعض أمور غامضة خاصة بالحكومة الإنكليزية ونظمها

ومن مهمة السفير أيضاً معرفة بعض أبناء الدنيا الجديدة . وأخيراً أمر السفير أن يكتب تاريخاً عاماً عن الفرنجستان وعن أحسن الوسائل المؤدية إلى تنفيرهم من شرب الخمر وأكل الخنزير وإلى اعتناقهم دين الإسلام

وبعد أن قرأت هذه التعليمات وفكرت ملياً رأيت أن خير من يجيب عليها هو كاتب في خدمة (الريس افندي) كنت قد تعرفت به إبان الزمن القصير الذي كنت فيه أنيق المظهر

وكنت أعرف المقهى الذي اعتاد أن يجلس فيه والساعة التي يذهب فيها وكان من عاداته ألا يكثر من الحديث ولا يسترسل في الكلام غير أني رجوت أن تنشرح نفسه ويحدثني عما يراه في هذه المسألة إذا ماشرب قهوته ودخن غليونه كما كان يحدث من إقباله عليّ بالحديث في بعض الأحايين

ولما اقتنعت بهذه الفكرة أخبرت بها السفير الذي سرها واغتبط إلى حد أنه عزاها إلى نفسه وقال لي : « ألم أخبرك بهذا ؟ ألم أقل لك إنك ذكي القلب .

حاضر البديهة . اعترف إذن بأن لى بصيرة نفاذة وبطراً ثاقباً ، وأنه يجب أن يكون المرء متوقد الذكاء والفطنة ليعرف أقدار الرجال ويميز الكنايات ! لولاى لما اتجهت أنظارنا إلى هذا الكاتب ولما فكرنا فيه . سيخبرنا ذلك الكاتب بكل شىء ويساعدنا على انتشار الإسلام فى جميع أنحاء الكون »

ثم أخبرنى السفير بأن فى إمكانى أن أعد ذلك الكاتب بالهدايا إذا وجدت صعوبة فى الاستعلام منه وإن استعصى على الكاتب أمر فله أن يستفهم عنه من نفس الريس افندى

وذهبت فى الوقت المناسب إلى المقهى فوجدت الكاتب هناك ودنوت منه مظهراً البشاشة والترحاب والود ثم دعوت الساقى وطلبت أن يحضر لنا فنجانين من القهوة اللذيذة التى يصنعها من ابن اليمنى . وجلست أمام الكاتب وقد تصادف أنه أخرج ساعته فوجدت الفرصة ملائمة للبدء فى مأموريتى . وقلت : « هل هذه الساعة من الفرنجستان ؟ »

قال : « هذا صحيح فليس فى العالم من يستطيع عمل الساعات غير الأوربيين »

قلت : « عجباً ! يظهر أنهم قوم غير عاديين »

فقال : « أجل غير أنهم كفار »

فقلت وقد أخرجت القليون من فمى وناولته إياه : « بالله عليك يا صاحبى أن تخبرنى بشىء عن هؤلاء الفرنج . هل الفرنج مملكة عظيمة ؟ أين يقيم ملكهم ؟ »

فأجابنى : « ماذا تقول يا صديقى ؟ أتقول مملكة عظيمة ؟ نعم ممالك كبيرة لا يحكمها ملك واحد بل ملوك كثيرون »

فقلت : « ولكننى سمعت أن الفرنج قبائل عديدة لكل منها اسم خاص وحاكم وهذه القبائل رغم ذلك تكون أمة واحدة »

فقال : « لك أن تقول أمة واحدة إذا أردت وقد تكون هذه هى الحقيقة إذ كلهم يحلقون ذقونهم ويرسلون شعورهم ويلبسون القبعات على رؤوسهم ، وكلهم يرتدى الملابس الضيقة ويأكل لحم الخنزير ويشرب النبيذ ولا يؤمن برسول الله . غير أن من الواضح أن لهم ملوكاً كثيرين . ألا ترى هؤلاء السفراء العديدين الذين يتوافدون على الباب العالى ؟ إنهم لا عداد لهم حتى لا يسع المرء أن يحصيهم »

فقلت له : « تكلم ! تكلم بحق رسول الله ! وسأكتب ما تقول . أشهد الله أنك رجل واسع الاطلاع غزير العلم »

فسرح الرجل شعر لحيته وأخذ يفتل شاربيه ويستجمع أفكاره ليحصى أمم الفرنجستان ، بينما كنت مشتغلاً بإخراج الدواة من جرابى والاعتدال أمامه استعداداً للكتابة

وبدأ الرجل حديثه بقوله : « ولكن لماذا تشغل نفسك بهذا الأمر ؟ إنهم جميعاً ملاعين من منبت نجس ومخرج دنىء ، ويوم القيامة سيصلون ناراً حامية »

ثم قال وهو يحصى على أصابعه : « أولاً هناك النمساويون جيراننا وهم قوم كثيرو التدخين يرسلون إلينا الأقمشة والسلب والزجاج ، ويحكمهم شاه من أعرق عائلات الكفر وأقدمها وله ممثل عندنا نطعمه ونكسوه . ثم هناك طائفة المسكوب وهم أمة قذرة لعينة مملكتهم كثيرة الاتساع حتى قيل إن لها طرفاً تغطيه الثلوج الدائمة والطرف الآخر نار القيظ الملتهبة . إنهم أعداء ألداء لنا وقد طالما حاربناهم

صارخين بأعلى أصواتنا «الله أكبر! فى سبيل الله!» ويحكم الرجال والنساء على حد سواء. ولكنهم يعاملوننا فى قتل حكامهم والثورة على ولاة أمورهم. ثم يجىء بعد هؤلاء من طوائف الكفر طائفة البروسيين وليس غير الله يعلم لماذا يرسلون إلينا سفيراً لا حاجة لنا به ولا منفعة؛ فإننا أبعد من أن نهتم بمثل ذلك الحقير؛ غير أن الباب العالى مفتوح على مصراعيه يلجه النجس والحقير كما يدخل منه المؤمن الوقور فتشمل الجميع عنايته

ثم ماذا أقول بعد ذلك بحق رسول الله؟ توجد طائفتان أخريان من طوائف الكفر تسكنان فى شمال العالم وتقيمان فى آخر حدود الأرض، وهما طائفتا الداغركيين والسويديين وهؤلاء قبائل صغيرة رجالها قصار القامة لا يذكرون بين الرجال رغم ما قيل من أن شاه الداغركيين من أكثر ملوك الفرنجستان اطمئناناً على ملكه وراحة فى عيشه لا يزعجه مزعج ولا يخيفه منازع بينما شاه السويد مشهور بالحماقة والجنون فقد أثار مرة فى أوربا حرباً شعواء لم ينظر فيها إلى البلاد التى يحاربها بل كانت الحرب غايته ومقصده، وقد أدى به جنونه وسلقته حماقته إلى اختراق حدودنا التركية. فأسرناه كما يؤسر الوعل الشارد.

وكانت هذه الحادثة سبباً فى معرفتنا تلك الأمة. ولولا ذلك لكنا ظللنا إلى ما شاء الله لا نعلم من أمر هذه الأمة حتى ولا وجودها.

وسأذكر لك قوماً آخرين يقال لهم أمة الفلمنك، وهم كفار أغبياء ثقال الظل باردو الطبع ينظر إليهم الفرنج كما تنظر نحن إلى الأوربيين لا يفكرون إلا فى جمع المال، ولا يطمعون إلا فى الثروة والغنى وهؤلاء يرسلون إلينا سفيراً خاملاً يقوم بشئون تجارتهم وتصريف صادراتهم من جبن وزبد وسمك محفوظ. غير أن حكومتهم قضى عليها ظهور بونابرت وبونابرت هذا رجل فى مقدمة الرجال حليق بأن نضعه فى صف نادر شاه الفارسى وسليمان القانونى التركى دون أن نخجل أو نحط من قدر أنفسنا».

وهنا لن أتمالك أن قاطعت الكاتب وقلت حين سمعت اسم بونابرت: «بونابرت». هذا هو اسم الرجل الذى أريد معرفة شىء عنه فقد سمعت أنه كافر لا نظير له مقدام شجاع، وأرجو أن أسمع منك شيئاً عنه»

فقال صاحبى: «هل تظننى أستطيع أن أحصى أخباره؟ لقد كان جندياً بسيطاً من عهد قريب، وهو اليوم سلطان أمة عظيمة، وهو الذى وضع لبلاده قانونها، وحاول جهد استطاعته أن يقضى علينا باستيلائه على مصر فأرسل جيوشاً جرارة لفتحها. غير أنه نسى سيوف المجاهدين وقتال المؤمنين فاضطره المصريون إلى العودة بعد أن خوف بضعة مماليك، وأرغم الأعراب إلى الالتجاء للصحراء»

فسألت الكاتب: «ألا يوجد بين الكفار قبيلة اسمها الانكليز؟ لقد قيل إنهم أقل القبائل عدداً وإنهم يقيمون فى جزيرة، ويصنعون الآلات الحادة».

فقال عجباً: «أجل ذلك صحيح، وقد حظى الانكليز منذ قرون بما لم يحظ به غيرهم من أمم الفرنج لدى الباب العالى فنالوا ودهم، وهم قوم يحرثون لهم أسطول كبير، ولا يعاملهم أحد فى صناعة الساعات، ونسيج الأقمشة»

فقلت له: «وماذا تعلم من أمر حكومتهم؟»

لا يمكن أن يكون من شيء آخر غير الشاه »

فأجابني : « كيف يمكنني أو يمكنك أن نفهم عقلية هؤلاء القوم المجانين ؟ لست أنكر أن لهم ملوكاً ولو أنه من المضحك أن ندعوه بالشاه إذ لا ينطبق عليه هذا الاسم فهم يطعمونه ويكسونه ويسكنونه في القصور الشواهق ويقررون له مرتباً سنوياً ويحيطونه بكل مظاهر العظمة وأبهة العرش بل ويلقبونه أضخم الألقاب وأعظم الأسماء سخرية منهم لأن الأغا البسيط من أغواتنا يملك من النفوذ أكثر مما يملكه هذا الشاه الانكليزي الذي بلغ من ضعفه أنه لا يستطيع حتى جلد أحد وزرائه مهما كانت جنايته . بينما يستطيع الأغا عندنا إذا أراد أن يصلم آذان نصف المدينة ولا يجازى بغير التشجيع والمكافأة . ولهم محال مملوءة بالمجانين الحمق يجتمعون فيها للجدل السخيف والتطاحن والتراشق بالألفاظ إذا قال فريق منهم عن شيء هذا أبيض اللون قال الآخر لا بل هو أسود ، ويثيرون ضجة عظيمة من مناقشات وردود وخطابات حول أية مسألة عادية يكفي أن يقطع فيها بالرأي أي مفتٍ عندنا فتفرض على قطر بأسره . وجملة القول فإن أمراً واحداً لا يمكن أن يقرر في تلك المملكة دون أن يثير الشعب تلك الضجة الحمقاء والمناقشات الجوفاء مهما بلغ من تفاهة هذا الأمر كقطع رأس أغا ثائر أو مثل ذلك من الأمور البسيطة . إن الله جلت قدرته وعظمته قد أعطى العقل لبعض الأمم وحجبه عن البعض الآخر ، وليس لنا إلا أن نخضع لما أراد وعلينا أن نشكره تعالى على أننا لم نخلق بين هؤلاء الإنكليز المجانين ، وعلى أنه أوجدنا في أمة راقية رزينة ندخن غلايينا مطمئنين آمنين على ضفاف البوسفور

فقلت : « ما أغرب ما تقص عليّ وما أعجبه ! لو لم أكن قد سمعت منك هذه الأمور لما صدقت منها حرفاً واحداً ؛ غير أن شيئاً واحداً بقي وهو مسألة الهند فكيف استطاع الإنكليز أن يحكموها مع أن حكامهم نساء مجانين »

فأجابني : « لا يدهشني والله أي أمر أسمعه عن هؤلاء القوم فليس لهم عقول . ولكن لم يصل إلى علمي أن الهند تحت حكمهم . قد يكون ذلك وقد لا يكون والله وحده يعلم . وكم للمجانين من أفعال شاذة وأمور غريبة »

فقلت بعد برهة صمت : « والآن هل قسمت علي كل ما تعلم أم لا يزال عندك علم بكفار آخرين ؟ قل لي بحق الصداقة إذ من كان يعلم أن في الدنيا الغريبة التركيب والتكوين أمما بهذا الشكل ! »

فقال بعد أن فكر قليلاً : « أجل لقد نسيت أن أذكر أمتين أو ثلاث أمم ، غير أن ما نسيت أن أذكره غير جدير بالحديث . هناك غير ماذكرت الأسبانيون والبرتغاليون والإيطاليون وهؤلاء أقوام يتغذون بالخنازير ويعبدون الأصنام وليس لهم أية قيمة حتى بين الفرنج . وقد وصل علمنا إلى أولاهم بسبب نقودهم الفضية المتداولة بيننا ، ويفد من الثانية بعض اليهود ، وتبعث الثالثة إلينا دراويش يدفعون مبالغ طائلة لبناء الأديرة ودق الأجراس . ويجب أن أذكر لك شيئاً عن البابا خليفة الفرنج فهو يقيم

فى إيطاليا ولا يني عن السعى فى نشر دينه ، غير أننا لا نهتم به وقد توفقنا إلى هداية كثير من تابعيه وهذا لايمنع من العذاب الذى يصيبهم على ما قدمت أيديهم قبل اعتناقهم الإسلام دينا »

فقلت لصاحبي : « لم يبق غير سؤال واحد ليس لى بعده سؤال وشكراً لك على ما قدمت ، هل تذكر لى شيئاً عن الدنيا الجديدة فقد سمعت أخباراً متناقضة حيرت عقلى . كيف وصل الناس إليها أمن تحت الأرض أم بأية وسيلة ؟ »

فقال الكاتب : « ليس بيننا وبين من ذكرت علاقات كثيرة ، ولذلك لا أستطيع أن أقص عليك كثيراً من أخبارهم غير أن المرء يستطيع الوصول إلى الدنيا الجديدة على سفينة إذ رأينا هنا كثيراً من سفن الدنيا الجديدة وكلهم نصارى ضالون »

ثم تابع حديثه متنهداً : « كلهم نصارى مثل سكان الدنيا القديمة وسيكون مقامهم فى جهنم وبئس المصير . هذه إرادة الله وحكمته »

ورأيت بعد ذلك أن الكاتب بدأ يتذمر ويتضجر فلم أسأله عن شيء آخر ، وكنا قد مضى علينا وقت طويل ونحن نتحادث فلم أطلب قهوة ولم أدخن وافترقنا بعد أن تواعدنا على المقابلة ثانياً

الفصل السادس والسبعون

مراجعتى بابا بكتب تاريخ أوربا

ورجوعى مع السفير الى ايرانه

عدت إلى السفير فرحاً طروباً بما معى من الأخبار وبنجاحى فى أول مهمة كلفت بها فى حياتى السياسية وقد سر السفير من التقرير الذى قدمته إليه مما قصه علىّ الكاتب . وظل السفير بعد ذلك مدة إقامتى فى الآستانة يرسلنى يومياً فى شئون أخرى واستمالات شتى إلى أن حسبنا سوياً أن فى استطاعتنا بما لدينا من المعلومات أن نكتب تاريخ أوربا الذى كلفه مليكه بكتابته عند عودته . فأخذت أشتغل بجد فى وضع ذلك التاريخ وبعد أن فرغت من كتابة مسودته عرضتها على السفير لتنقيحها وتصحيحها لتوافق أغراض الشاه فنقحها وزاد فيها ما رآه لازماً وحذف منها ما يجب حذفه ، وحين انتهى منها سلمت إلى كاتب نقلها بخط جميل فأخرجها مجلداً قيماً مرتباً ترتيباً بديعاً ووضعها فى كيس من الحرير قال السفير إنه حرى بيد الشاه ، واعتقد السفير أنه أتم مأموريته التى جاء من أجلها وأعلن أنه سيأخذنى معه إلى إيران بل زاد على ذلك أننى سأستمر فى خدمة الحكومة بعد رجوعنا إلى طهران ، وقال إن رجلاً له مثل هذه الدراية والخبرة الواسعة بأحوال الفرنجستان سوف ينفعنا نفعاً كبيراً فى معاملة السفراء الموجودين فى إيران »

ولم أكن أتمنى فوق ما عرضه على السفير إذ أن سوء المعاملة التى لقيتها من الترك جعلتنى أكره الإقامة بينهم فلم أعد أرى فى مدينتهم ما يجملها فى عينى ، وكنت كلما ذكرت شكرليب غلى صدرى بالغيظ والحقد الشديدين

وكان قد مضى زمن طويل على حادثتى مع شيخ العلماء فى طهران ، وكنت قد علمت أن اللالا أدان قد مزق جسده على آلة التعذيب وأن أرملة شيخ العلماء التى تركتها بين أيدى قطاع الطريق لم ترجع

قط إلى فارس فاستنتجت من كل ذلك أن فى مقدورى أن أعود إلى الظهور فى فارس دون خوف

وقلت فى نفسى : « وإذا عرفت وظهرت حقيقتى فمن الذى يجرؤ أن يمسنى بأذى وأنا فى حماية رجال الحكومة ذوى النفوذ والجاه ؟ لقد استرد رئيس الجلادين جواده ومتاعه عند القبض على اللالا دان ، وأغلب الظن أن الشيخ عبد الكريم قد لقى ما لقيته سيدته أرملة اللالا باشى إذ لم يسمع عنه أى خبر فلست أخشى أن يعود إلى مطالبتى بالمائة التومان، وأى شىء أخشاه بعد ذلك من العودة إلى طهران ؟ »

لم أر ما يجب علىّ أن أخشاه إذ يكفى أن يعلم القوم أننى فى خدمة الشاه لأسير مطمئناً فى تيه وعجب واختيال فى كل أنحاء البلاد الفارسية مهما يكن من ذنوبى ، وشجعت عزيمتى هذه الأفكار فأخذت أجهز نفسى للرحيل مع السفير . غير أننى عقدت النية على أن أزور قبل رحيلى الخان الذى فيه أبناء وطنى لأتمكن من الظهور أمامهم بمظهر ذى النفوذ والسلطان بعد ما لقيت من الخزى والعار فى حادثتى الأخيرة

وقد تعبت فى إقناعهم بأننى من موظفى السفارة ثم لم أحس بعد ذلك أن يهزأوا بى ويسخروا منى إذ لم يكد يستقر فى عقولهم أننى من أتباع السفير المقربين حتى كنت محل عنايتهم واحترامهم ، وكانت الكلمات التى يوجهونها إلىّ لا تقل عن : « إذا تفضلت » أو « إذا قبلت مكارمكم » أو « نرجو من مكارم حضرتكم » ، وغير ذلك من كلمات التبجيل والاحترام التى لا تنقطع وخطابات التعظيم والإجلال التى لا نهاية لها . وكان الذى يسمعهم فى احترامهم هذا وتعظيمهم لا يخطر بباله أننى نفس الرجل الذى ضحكوا منه وشهروا به منذ أقل من شهرين بل يعتقد أننى رجل بلغ من سلطانه وقوته أن حياتهم أو موتهم يتوقفان على إشارة من بنانه

غير أننى لما استأذنت من عثمان آغا لم ألاحظ عليه أى تغيير ، ودلنى كلامه على أن عاطفته نحو ابن حلاق أصفهان هى هى لم يطرأ عليها أى تبديل وقال بلهجته العادية حين افترقنا : « إذهب يا بنى . إننى سأصلى وأبتهل إلى الله أن يفيلك ما تصبو إليه نفسك من رفعة ونجاح ، وأن يسدد الله خطواتك أينما ذهبت وفى أية حالة — سجيناً عند التركمان ، أو عالماً من العلماء ، أو بائع غلايين ، أو آغا تركيًّا أو سفيراً فارسيًّا — كن ما شئت وسأدعو الله لك فى صلاتى »

وترك السفير اسكوتارى بعد أن انتهى من حفلات الوداع ، واستأذن الحكومة فى الرحيل ، وصحبه كثير من الفارسيين فى مسيره وظلوا معه نحو فرسخ ثم استأذنوه فى العودة

وكانت رحلتنا هادئة لم يحصل فيها ما يستحق الذكر من يوم أن بدأنا المسير إلى يوم دخولنا فارس وسمعنا فى « أريفان » أخباراً مبهمة غير واضحة عما يشغل بال القوم وعما يحدث فى البلاد إلى أن وصلنا إلى تبريز التى يحكمها عباس ميرزا فعلمنا أهم المسائل التى تشغل بال القوم وأهمها التشاحن بين السفيرين الفرنسى والإنكليزى وسماح الشاه لأولهما بالمثول بين يديه وعدم استطاعة الثانى المثول أمام جلالته بعد

وسمعنا أخباراً عدة عما يبذله السفيران من الجهد

فى الوصول إلى أغراضهما ، وقد وصل التعجب والاندهاش من الفارسيين مبلغهما عند رؤيتهما النصارى يتركون بلادهم متحملين كثيراً من المشقة والتعب ليتشاحنوا ويتنابذوا أمام شعب كامل يحتقرهم ويتمنى لهم الهلاك والموت العاجل .

أخذ السفير الفرنسى لكى يحصل على مطالبه يذكر ملكه وعظمة مملكته وسيادتها فى جميع أنحاء أوروبا وعدد الجيوش الجرارة التى يمكن أن ينزلها امبراطوره إلى الميدان ، وقد أجابه الشاه عن كل ذلك بما يأتى :

« قد يكون ما قلت صحيحاً ، ولكن مالنا نحن ولقوتكم وعظمتكم ، وأية علاقة بين فرنسا وبين إيران ؟ أى غرض لكم تسعون إلى تحقيقه ؟ »

فقال السفير : « غرضنا أن نفتح الهند ونخرجها من يد الانكليز ، ونرجو أن تسمحوا لنا بطريق نمر منه فى بلادكم » .

فقال الشاه : « وماذا نستفيد نحن ؟ قد تكون رغبتكم فى الهند قوية ، ولكن أى شأن لنا فى هذا ولم نسمح لجيوشكم بالمرور من أرضنا ؟ لا رغبة لنا فى ذلك » .

فأجاب السفير : « صبراً . فسنفتح لكم جرجان ونملككم تفليس ، ونحميكم من اعتداء الروس على أرضكم فى المستقبل ! » .

فقال الشاه : « هذه مسألة أخرى فحين تبرهنون لنا على صدق أقوالكم ، ونرى نتيجة أعمالكم ، ونسمع أنه لم يبق روسى على جوانب القوزاق نتعاقد معكم ، ولكن قبل ذلك الوقت لانستطيع أن نفتح لكم طريقاً فى أرضنا أو نعادى أصدقاءنا القدماء : الانكليز .

وقال سفير الانكليز من جهة أخرى : « ليس للفرنسيين أى غرض فى المجئ إلى فارس إلا مضايقتنا ومنازعتنا فنريد ألا تقبلوهم فى فارس » .

فقال الشاه : « كيف تريد أن نفعل ما تأباه قوانين الضيافة ؟ إن أبواب قصرنا مفتوحة لكل قاصد »

فقال السفير الانكليزى : « ولكن يجب أن تختاروا صداقة أحدنا وعداء الآخر ، فإما أن تستمروا أصدقاء لنا فتطردوا السفير الفرنسى وإما أن تقبلوه فتكونوا أعداءنا »

فأجابه الشاه : « ولم نعادى الناس لنسركم ؟ إننا نريد أن نكون أصدقاء الجميع » .

فقال السفير : « ولكن فى استطاعتنا مساعدتكم على نمو قوتكم وإعطائكم ما يلزمكم من المال »

فأجاب الشاه : « عافاك الله ! هذه مسألة أخرى فأخبرنى ماقدر المال الذى تدفعونه فينتهى كل أمر ؟ »

كانت هذه هى الحال عند وصولنا إلى تبريز . ولما كان وصول متبوعى السفير إلى طهران منتظراً بفارغ صبر فلم نتريث فى سيرنا ولم نلبث كثيراً عند الأمير عباس بل أسرعنا فى المسير . ووصلنا إلى مقر السلطان فى صباح أحد الأيام فشاهدنا فى طريقنا صفاً طويلاً من الفرسان معهم أمتعتهم ولا حظنا أنهم ليسوا فارسيين وقد تبينا عند الاقتراب منهم أنهم من الفرنج

وكان يصحبهم ضابط فارسى من قبل الشاه أخبرنا أن هؤلاء هم رجال السفارة الفرنسية راجعين إلى بلادهم بعد أن أرسل إليهم الشاه خطاباً رقيقاً

يوم يعتزمه مغادرة البلاد . وأخبرنا ذلك الضابط أن السفير الإنكليزى وأتباعه سيحلون محل الفرنسيين قريباً . واستنتجنا مما رأينا مجمل سير الأمور فى حكومة إيران وأن الشاه أيده الله بنصر من عنده قد استفاد من النزاع والشحناء بين الفرنسيين والإنكليز . وقد دهش السفير الذى أصحبه من تلك النتيجة ومن البت فى الأمر بهذه السرعة وعدم انتظار الشاه له مع ما يحمل من أخبار أوربا، ولكن سرعان ما فسر هذا تأثير المال الذى لا تقف أمامه عقبة مهما عظم شأنها

سنحت لنا هذه الفرصة للاحظة الفرنسيين الذين سمعنا عنهم كثيراً فى الأيام الأخيرة. ولم يعدم السفير الفارسى وسيلة يتعرف بها بالسفير الفرنسى .

وانتظرنا أن نجد الفرنسيين منقبضى الصدور منحلى العزيمة بسبب طردهم من حضرة الشاه ولكن دهشتنا كانت عظيمة حين رأينا الأمر على نقيض ما ظننا . لم تر إيران قبل هؤلاء القوم قوماً أكثر مجوناً ولاعبثاً ولاجنوناً فقد كانوا يرقصون ويغنون ويضحكون طول اليوم ، وكانوا يتحدثون جميعاً فى وقت واحد بأصوات تختلف فى العلو والارتفاع من غير فارق فى المراتب إذ يظهر أنهم جميعاً من طبقة واحدة فى نهاية الانحطاط .

وكانوا يدوسون أبسطتنا بغير احترام مما أثار عواطفنا وحرك نفوسنا . وإذ كنت أحسب نفسى ذا خبرة واسعة بأحوال الفرنجة لما قاسيته فى الاستعلام عنهم فقد حاولت أن أعرف إن كان يوجد تشابه أو مشاكلة بين لغتنا وبين لغتهم ، غير أنى لم أنجح فى فهم كلمة واحدة مما يرطنون به . وكل ما حسبت نفسى قادراً على تذكره أو رسمه ثلاثة ألفاظ سمعتهم يكررونها ، ويعيدونها كثيراً فى حديثهم . وهى « سفير » و « باريس » و « الأمبراطور » .

وخطر ببالى أن هؤلاء الفرنسيين لن يغيروا شيئاً من مرحهم أو ضحكهم ومجونهم يوم تحتويهم نار جهنم فى الدار الآخرة ، وأن حالهم فيها ستكون مثل حالهم التى رأيناهم عليها فى مقر السلطنة . وافترقنا فى الصباح التالى فسارواضاحكين صاخبين فى طريقهم وسرنا نفكر خائفين مما عسى أن يستقبلنا به الشاه ملك الملوك

الفصل السابع والسابعون

وصف الارتحال لاستقبال سفير الفرنجستان

استقبل رئيسى ميرزا فيروز فى قصر الشاه بالحفاوة والإكرام، وسر الشاه من الإجابات الحاضرة التى كان يتلقاها من سفيره على أسئلته المتعددة الخاصة بشئون أوربا فأظهر السفير بذلك أنه خليق بمركزه جدير بعناية مولاه وأن أحداً غيره لم يكن ليقوم بما قام به فى المهمة التى انتخب لها

كان لا يتوانى لحظة فى الإجابة على أسئلة الشاه ولا يتلعثم ولا يتلجلج ولم يبد عليه الجهل ولا وقفت أمامه عثرة ولم ينطق أمام الشاه بكلمة « لا أعرف » قط فقد كان يعلم أن هذه الكلمة مما لا تحتمله آذان الملوك

وكان يرسل الكلمات فى رصانة ورزانة وثبات ويبعث القول قوياً مقنعاً حتى لا يمكن أن يخطر